ماذا يجب عليك
أن تفعل حتى تنفعك
كلمة "لا إله إلا الله"؟

هل تعلم أن لكلمة التوحيد شروطًا؟

لو سُئل أكثرنا: «كيف أسلمت؟» أو «كيف دخلت في دين الإسلام؟»، لكان جوابنا: «قلنا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فصرنا مسلمين».

لكن لو جاء سؤال ثانٍ: "أنت قلت هذه الكلمة لتدخل الإسلام، فهل قَبِلها الله سبحانه وتعالى؟"، قد نتعجب من هذا السؤال.

ولنوضّح الأمر بمثال:

نحن نصلّي لنرضي الله تعالى. وصحة الصلاة وقَبولها عند الله سبحانه وتعالى مرهونان بأداء شروطها والابتعاد عما يُبطلها. فمن توضأ، واستقبل القبلة، ونوى الصلاة، وابتعد عمّا يبطلها أثناء أدائها، فصلاته صحيحة. لكن، هل تصح صلاة من لم يلتزم بالشروط وكان يأكل أو يشرب أو يتحدث مع الناس أثناء الصلاة؟ الجواب: لا.

وكذلك كلمة "لا إله إلا الله"؛ فلها شروط تُقبل بها، ولها نواقض تُبطلها إن ارتكبها الإنسان. فمن قالها مرات ومرات دون أن يلتزم بشروطها، كانت كلمته باطلة.

ما هو الطاغوت؟

أول شروط كلمة التوحيد: الكفر بالطاغوت والابتعاد عنه. وقد أُرسل جميع الأنبياء لدعوة الناس إلى هذه الحقيقة:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا اَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللّٰهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْاَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (النحل: ٣٦).

وقال الله سبحانه في آية أخرى، مبيّنًا أن التمسك بالعروة الوثقى – أي كلمة التوحيد – لا يكون إلا بإنكار الطاغوت:

لَآ اِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقٰى لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٥٦).

إذن، العروة الوثقى في الإسلام هي كلمة التوحيد. ولا ينتفع بها قائلها إلا بشرطين اثنين: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله تعالى.

والطاغوت مصطلح قرآني ورد في ثماني آيات، وهو من أعظم المفاهيم في الإسلام. والكفر به دعوة مشتركة لكل الأنبياء. (انظر: النحل، ٣٦)

الطاغوت في القرآن

- المصادر المعرفية التقليدية أو الدينية أو السياسية التي تضع مقاييس وأحكامًا خارج معايير القرآن، فتقود الناس من نور الوحي إلى ظلمات الكفر. (البقرة: ٢٥٧)
- القيم والطرق التي تُؤلَّه وتُتَّبع، والتي يُعاش ويُضحّى في سبيلها، ويُبنى عليها الولاء والبراء، لكنها لا تستمد شرعيتها من الله سبحانه وتعالى. (النساء: ٧٦)
- الأشخاص أو المؤسسات التي تضع قوانين مخالفة لشرع الله وتدعو الناس إليها، وكذلك القوانين التي يشرّعونها. (النساء: ٦٠)
- كل ما يُعبد من دون الله، أو يُحب كما يُحب الله، أو يُخشى كما يُخشى الله، أو يُطاع طاعة عمياء كما تُطاع أوامر الله، سواء كان كائنًا حيًا أو جمادًا. (الزمر: ١٧)
- ومن آمن بالله سبحانه وتعالى ولم يكفر بالطاغوت، فقد آمن بالطاغوت وعبدَه، وكفر بالله جل وعلا. (انظر: النساء ٥١؛ المائدة ٦٠)

وقفة للتفكر

فلنتفكر معًا يا أخي:

كم منّا يعرف معنى «الطاغوت»؟

كم منّا قد سمع بهذه الكلمة من قبل؟

لماذا لم يبيّن لنا الشيوخ، الوعّاظ في الفضائيات، الشيوخ المتصدّرون، أو حتى بعض العلماء هذا المفهوم العظيم؟ ولماذا ما زالوا يتغافلون عنه؟

مع أن جميع الأنبياء أُرسلوا ليدعوا أقوامهم إلى هذه الحقيقة، فلماذا يُخفي دعاة اليوم عنّا الرسالة المشتركة لجميع الرسل؟

الطَّاغُوتُ الَّذِي ذَكَرَهُ جَمِيعُ الرُّسُلِ فِي دَعْوَتِهِمْ هُوَ كُلُّ مَا يُعبد مِنْ دُونِ اللَّهِ سبحانه وتعالى.

وإليك بعض صور الطاغوت:

الأضرحة والقبور التي يُدعى أصحابها ويُطلب منهم الغوث.

الحكام والبرلمانات التي تشرّع قوانين لا يرضاها الله سبحانه.

الأيديولوجيات التي تحاول توجيه حياة الناس وفق قيم مخالفة للوحي.

رجال الدين الذين يخدعون الناس باسم الإسلام ويخفون عنهم الحقائق.

الدعاة الذين يبعدون الناس عن نور الوحي إلى ظلمات الشرك والمعصية.

القيم الزائفة التي يعيش الناس ويموتون في سبيلها.

كل ذلك من صور الطاغوت.

ربما تسمع كل هذا لأول مرة. لكن قد حان الوقت لنتوقف ونتأمل، ولنُعيد النظر في حياتنا على ضوء كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

ففي القبر، أو حين نقف بين يدي الله سبحانه وتعالى، لن يُحاسبنا إلا على ما جاء في كتابه وعلى رسالة نبيه ﷺ التي بلغتنا.

فلنحذر أن نسمح لأحد أن يخدعنا باسم الدين أو باسم الله سبحانه.

والآن، لنواصل معًا فهم الكلمة العظيمة "لا إله إلا الله"، ولننظر في المفاهيم الأساسية المرتبطة بها: الإله، العبادة، والشرك، حتى ندرك معناها وشروطها إدراكًا صحيحًا

هل تعرف لماذا خُلقت؟

هل سألت نفسك يومًا:

«ما الحكمة من أن الله خلقني من العدم، ورزقني، وسخّر لي الكون كله، وجعلني أشرف المخلوقات؟»

قال الله تعالى:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: ٥٦)

غاية خلق الإنسان هي التوحيد. والتوحيد هو عبادة الله وحده وإفراده بالعبادة.

فالمؤمن لا يُصلي ولا يصوم ولا يذبح الأضاحي إلا لله وحده، ويُنظم حياته كلها وفق شريعة الله، خاضعًا فقط لأحكامه وقوانينه. (انظر: الفاتحة، ٥)

ولأن التوحيد هو الهدف الأساسي لوجود المؤمن، فيجب أن يبقى هو «الهم الأول» و«القضية المركزية» في حياته، لا يتغير ولا يتبدل. (انظر: ص، ٢٧)

إذن، الحكمة الوحيدة من خلق الله لجميع البشر هي: العبادة الخالصة لله وحده.

أما من لم يعبد الله وحده، أو أشرك معه غيره في العبادة، فقد خان غاية وجوده ونقض العهد الذي أخذه على نفسه مع ربه.

ما هي العبادة؟

حتى نتمسك بغاية وجودنا، علينا أن نفهم أولًا ما معنى العبادة.

العبادة هي: الأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضاها، والتي لا تُصرف إلا له وحده سبحانه.

الصلاة عبادة. أمر الله بها لأنه يحبها ويرضاها. فإذا صلاها العبد لله وحده كانت عبادة صحيحة. أما إذا قال أحدهم: "أنا أصلي لأجل والديّ أو مديري أو الدولة"، فإن صلاته باطلة، لأنه صرف العبادة لغير الله.

الدعاء عبادة كذلك. قال الله تعالى:

"وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" (غافر: ٦٠)

وقال رسول الله ﷺ بعدما تلا هذه الآية:

"الدعاء هو العبادة." (رواه أبو داود ٩٧٤١، والترمذي ٩٦٩٢)

لذلك لا يجوز للإنسان أن يدعو إلا الله وحده، ولا يطلب الفرج والمدد إلا منه سبحانه، ولا يلجأ إلى غيره في كشف الكربات، لأن الدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله وحده.

الحكم والتشريع كذلك عبادة. قال تعالى:

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (يوسف: ٤٠)

فمن جعل الحكم والتشريع لغير الله، فقد صرف عبادة من أعظم العبادات لغيره

الحكم والتشريع من خصائص الله وحده الإيمان بأن الحكم والتشريع وتحديد الحلال والحرام حق خالص لله وحده، والعيش وفق هذا الإيمان، ليس أمرًا ثانويًا أو ترفًا، بل هو من أصول العقيدة الإسلامية التي لا تقوم بدونها. وقد ربط الله سبحانه وتعالى مسألة الحكم بأمرين أساسيين:

١- العبودية له سبحانه.

٢- الدين القويم.

فمن جعل الحكم والسلطة المطلقة لله وحده، ولم يعترف بأي قانون خارج عن شريعته، فهو عبد لله ومن أهل الدين المستقيم. أما من منح السيادة المطلقة لأي شخص أو مؤسسة أو فكر أو نظام غير الله، فقد عبد أسماء وأفكارًا لم يُنزّل الله بها سلطانًا. إذن، الحكم والتشريع والسلطة العليا في تقرير الحلال والحرام هي حق حصري لله عز وجل. ويجب على الإنسان أن يؤمن أن هذا الحق خالص لربه، وألا يعطي حق التشريع للبرلمانات أو الملوك أو الطغاة الذين ينازعون الله في حقه.

هل تعرف معنى كلمة التوحيد وكلمة الشهادة؟

كلمة التوحيد

لا: نفي.

إله: أي معبود.

إلا: استثناء.

الله: أي وحده لا شريك له.

كلمة الشهادة

أشهد: أي أُقرّ وأُعلن.

أن لا إله: لا معبود بحق.

إلا: سوى.

الله: إلا الله وحده.

دلالة كلمة التوحيد

عندما نقول «لا إله إلا الله»، فإننا نبدأ بنفي الألوهية عن كل شيء، فنعلن أنه لا يوجد أي معبود بحق، ثم نُثبت أن الله وحده هو المعبود الحق. إذن، المحور الأساسي في كلمة التوحيد هو الإله.

ما معنى «الإله»؟

الإله هو: المعبود بحق، المستحق للعبادة، الذي تجب له الطاعة والخضوع. وبذلك، عندما نقول: لا إله إلا الله، فإننا نُقرّ ونلتزم: «يا الله، سأجعل صلاتي، وصيامي، وذبيحتي، ودعائي، وجميع عباداتي لك وحدك. أنت سيد الكون ومالك الحكم. لن أعترف بأي مشرّع سواك. الحق ما سميته حقا، والباطل ما سميته باطلا. النفع والضر بيدك وحدك، فلن أطلب النفع إلا منك، ولن أستعيذ إلا بك. لن أسمح لأي مخلوق أن يتحكم في حياتي. سأوالي أولياءك وأعادي أعداءك. هدفي الوحيد هو رضاك. سأعيش لك وحدك، وسأموت لك وحدك.»

فما هو الشرك؟

الشرك هو: أن يُعبد غير الله، أو أن يُشرك مع الله غيره في العبادة.

فأي عبادة كانت – صلاة، صيام، دعاء، ذبح أو غيرها – إذا صُرفت لغير الله، أو صُرفت لله ومعه مخلوق آخر، فهذا شرك بالله عز وجل.

آيات من القرآن الكريم حول الشرك

كنا قد ذكرنا أن الحكم والتشريع من خصائص الله، وأن إسناد هذا الحق إليه عبادة له. أما من يُعطي هذا الحق لغير الله فقد قال فيهم ربنا جل وعلا:

"اَمْ لَهُمْ شُرَكٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّيْنِ مَا لَمْ يَاْذَنْۢ بِهِ اللّٰهُ ۗوَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗوَاِنَّ الظّٰلِمِيْنَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ" (الشورى: ٢١)

فالذين يشرّعون ما لم يأذن به الله، ويجعلون الحلال حرامًا والحرام حلالًا، ويضعون القوانين المخالفة لشريعة الله، هم في الحقيقة شركاء في الألوهية، والذين يطيعونهم على ذلك يكونون قد أشركوا مع الله. لأن التشريع وتحديد الحلال والحرام من خصائص الله تعالى وصفاته. (انظر: يوسف ٤٠؛ الكهف ٢٦)

وقال الله تعالى أيضًا:

"اِتَّخَذُوْٓا اَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَالْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ ۚوَمَآ اُمِرُوْٓا اِلَّا لِيَعْبُدُوْٓا اِلٰهًا وَّاحِدًا ۚلَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ ۗسُبْحٰنَهٗ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ" (التوبة: ٣١)

تفسير النبي ﷺ لهذه الآية

روى عدي بن حاتم – وكان نصرانيًا في الجاهلية – أنه دخل على رسول الله ﷺ وفي عنقه صليب من فضة، وسمعه يتلو هذه الآية، فقال:

"يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم"

فقال ﷺ:

تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠

"أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟"

قال: "بلى."

قال ﷺ:

"فتلك عبادتهم." (تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠، وابن أبي حاتم في التفسير ١٧٨٤/٢)

خلاصة المعنى

- يبيّن القرآن وتفسير النبي ﷺ أن المرجع الوحيد في الحلال والحرام، والمشروع وغير المشروع، هو الله وحده. هذا من معاني كونه سبحانه الرب، أي: المربي، المنظم، المشرّع.
- فمن أعطى هذا الحق لغير الله – سواء كان عالمًا أو رجل دين، أو برلمانيًا أو حاكمًا أو زعيم عشيرة – فقد اتخذه ربًّا من دون الله

كنا قد ذكرنا أن الدعاء عبادة، والآن لننظر ماذا يقول الله عز وجل عن الذين يدعون غيره:

"لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" (الرعد: ١٤)

"يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۚ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ۖ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۚ" (فاطر: ١٣-١٤)

"أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" (الزمر: ٣)

جذور الشرك في الدعاء

أساس الشرك في هذا الباب يقوم على تصوّر باطل:

أن الله "بعيد" ولا يمكن التوجه إليه مباشرة.

أو أن العبد "حقير مليء بالذنوب"، فلا يليق به أن يسأل ربّه بلا واسطة.

وهذا التصور الخاطئ يدفع الإنسان للبحث عن "أولياء" أو "وسطاء" يزعم أنهم يقرّبونه إلى الله. (انظر: البقرة ١٨٦؛ المائدة ٣٥؛ سبأ ٢٢-٢٣؛ الزمر ٤٣؛ الأنعام ١٤)

لكن الله سبحانه وتعالى بيّن أن من دعا غيره فقد عبده، وأن هذا شرك وكفر، وأن أصحابه كاذبون.

خطورة الشرك

تذكّر أن صرف العبادة لغير الله شرك، وأن الشرك أعظم ظلم. قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه:

"وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" (لقمان: ١٣)

والشرك يُحبط جميع الأعمال، ويجعل صاحبه خاسرًا في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى:

"وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الزمر: ٦٥)

خطورة الشرك رغم سعة رحمة الله

مع أن عفو الله ورحمته ومغفرته وسعت كل شيء، إلا أن من يقع في الشرك يُحرم من هذه الرحمة:

"اِنَّ اللّٰهَ لَا يَغْفِرُ اَنْ يُّشْرَكَ بِهٖ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ ۚ وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدِ افْتَرٰٓى اِثْمًا عَظِيْمًا" (النساء: ٤٨)

فالذنب الوحيد الذي لا يُغفر إن مات صاحبه عليه دون توبة هو الشرك، أما ما دونه من الذنوب فهي تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفر، وإن شاء عاقب.

معنى الشرك وصوره الشرك هو:

أن يُصرف عمل من أعمال العبادة لغير الله. أو أن يُعطى مخلوق من المخلوقات صفة من صفات الله تعالى. وله صور متعددة، منها: الشرك في المحبة (انظر: البقرة ١٦٥). الشرك في الطاعة (انظر: التوبة ٣١). الشرك في الدعاء والعبادة (انظر: الأعراف ٣٧؛ يونس ١٠٦). الشرك في التشريع ووضع القوانين (انظر: الكهف ٢٦؛ الشورى ٢١). شرك تعظيم بعض المخلوقات أو تأليهها بحجة توحيد المجتمع (انظر: العنكبوت ٢٥).

عاقبة الشرك

كما رأينا في الأدلة السابقة: المشرك قد افترى على الله أعظم الافتراء، وارتكب أعظم الظلم، فحُبطت أعماله كلها، وحُرّم عليه دخول الجنة.

قال تعالى:

"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْٓا اِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيْحُ يٰبَنِيْٓ اِسْرَاۤءِيْلَ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ ۗ اِنَّهٗ مَنْ يُّشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَاْوٰىهُ النَّارُ ۗ وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ مِنْ اَنْصَارٍ" (المائدة: ٧٢)

الدعوة إلى التوحيد فإلى ماذا ندعوك؟

ندعوك إلى دين جميع الأنبياء، وإلى الدين الحق الوحيد المقبول عند الله: الإسلام.

ندعوك إلى التوحيد الخالص الذي لا يُعبد فيه إلا الله وحده، بلا شريك ولا وسيط.

ندعوك إلى ملة إبراهيم عليه السلام، التي تقوم على رفض كل طاغوت والكفر به، وعلى إخلاص العبادة لله وحده، وتوجيه المحبة والخوف والرجاء كلها لله تعالى.

ندعوك إلى مغفرة الله وجنات الفردوس التي هي دار السلام والخلود